العمارة العسكرية فى العصور الوسطى

بين العرب والصليبيين

لم تكن فى غلبة العرب على البيزنطيين فى معارك سورية ومصر وشمال افريقية ــ القضاء الأخير على الإمبراطورية الرومانية الشرقية . صحيح أنه انسلخت عنها أهم ولاياتها فى الشرق الوسيط وانكمشت رقعتها وتخلت حامياتها عن كثير من المواقع الاستراتيجية الهامة ولكن مع ذلك صمدت الإمبراطورية نحو سبعمائة سنة أخرى حتى أتيح للسلاجقة وللعثمانيين القضاء الأخير عليها عام ١٤٥٣ .

ورث العرب تراثا ضخما من بيزنطية : رقعة فسيحة من الأراضى التى تمتد من اعالى الفرات ومضيق طوروس فى الشرق إلى الصحراء الكبرى فى الغرب ؛ أرض واسعة ذات سواحل تنتشر عليها الموانىء الصالحة لرسو السفن الحربية والتجارية ، ومدن كبيرة تنتشر فيها المعابد والكنائس والملاعب والمدارس والأسواق والحمامات . . . الخ . وعلوم وفنون كثيرة لم يكن للعرب معرفة بها من قبل ، ثم عرفوا كيف يفيدون منها فى حضارتهم الإسلامية .

وقد كان من بين ماورثه العرب مدن الثغور والحاميات البيزنطية وما احتوت عليه من الحصون والقلاع . وكان الرومان قد اختاروا لها المواقع المهمة التى تتوافر فيها المزايا العسكرية ، فأبقوها على حالها . ولكن هل كان معنى ذلك أن العرب لم يكونوا على معرفة بالحصون وهم فى الجزيرة العربية قبل أن تتدفق جيوشهم الوثابة نحو بلاد الأعداء فى سورية وشمال أفريقية .

فى أقصى الجنوب ، فى حضرموت واليمن ، إلى قلب الجزيرة ، وفى شمالها قامت القلاع العربية الشامخة والحصون المتطلعة ، يمربها الرواد فى سلام وهدوء ، مع أنها كانت فيما مضى مواقع النضال المرير والاستبسال العنيف فقديما كانت اليمن بلاد القلاع والحصون أكثر من شيدها الحِميريون للحماية ضد غزوات البدو ، ولقد وصفها الهمذانى وياقوت وغيرهما ، فيما دونوه عن القصور المحصنة ، ومنها قصر غمدان فى صنعاء ، الذى احتوى على عشرين طابقا ، ناطحت السحاب ، إلى أن أصابته يد الخراب والدمار ، ولم يتخلف منه سوى الأطلال .

وعندما بزغ نجم الإسلام ، لم تكن فى مدن الجزيرة القاحلة قلاع منيفة ، إلا فى بعض الواحات التى قامت فيها المدينة ومكة والطائف ، لأن طبيعة المعارك القبلية لم تكن فى حاجة اليها ، إلا أن الطائف كان لها على ما يظن سور يحيط بها ، ومن المحتمل أنه كان هناك بعض الحصون الصغيرة والمعاقل فى المدينة وخيبر . . لقد كان من تقاليد العرب خوض المعارك المكشوفة ، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ م ، إتفق المشركون من القبائل العربية على القيام بهجوم على المدينة ابتغاء السيطرة عليها ، ووجد المسلمون انفسهم مضطرين لأول مرة ، إلى الالتجاء لنوع من الحصون وكان ذلك على صورة خندق ، أشار بحفره سلمان الفارسى (٦٢٧) .

ونحن إذا أخذنا بأقوال المؤرخ المسعودى ، لوجدنا أن سور المدينة لم يشيد إلا فى العام الثالث والستين للهجرة (٦٨٢ / ٦٨٣ م) .

أما اليهود ، فرغبة منهم فى الدفاع عن أنفسهم ، قبالة أى هجوم محتمل ، ركزوا جهودهم فى حصون قوية منيعة فى خيبر ، وقد منى المسلمون بخسائر فادحة أثناء هجماتهم على المواقع اليهودية ، بسبب ما كان يتساقط عليهم من معاقلهم ، ولولا جرأة الصحابة واقدامهم واستبسالهم ، لما تحطمت أمامهم أبواب قلعة خيبر . وبعد سقوط هذا الحصن المنيع وجد اليهود ، أن من العسير عليهم الصمود أمام أى هجوم جديد واضطروا مؤخرا ، إلى

تسليم حصونهم لجيش المسلمين . وقد عثر جنود النبي فيماعثروا عليه من الغنائم في حصن « صعب » على « منجنيق » وما كادوا يرونه حتى تثبتوا من فائدته وشرعوا من فورهم فى صناعة مثله . وفى حصار الطائف عام ٦٢٧ / ٦٢٨ م رأينا المسلمين يقيمون لأول مرة منجنيقا أمام الحصن الذى استسلم لهم ، قبل أن تبدأ تلك الآلة عملها .

كذلك أفضى احتكاك جيوش العرب بقوات بيزنطية فى أيام الخلفاء الراشدين إلى ادراكهم أهمية الحصون والأبراج ، ومن ثم عنوا بدراسة فن الحصار وصناعة آلاته الثقيلة . وهكذا بدأ العرب يتعلمون أساليب جديدة فى فن اقامة القلاع وبناء الحصون بعد أن اندثرت معاقلهم القديمة التى شيدها أسلافهم فى جنوب الجزيرة الغربى .

إن العرب ، بعد انطلاقهم للفتح من قلب جزيرتهم ، سارت جيوشهم فى ثلاثة اتجاهات ، أخذ أحدها طريقه فى اتجاه بيت المقدس . وسار الثانى نحو دمشق ، أما الجيش الثالث فقد اتجه لغزو العراق . . ووصل إلى الفرات عند مكان البصرة تقريبا . ومر هؤلاء الغزاة بسلسلة من قلاع الحدود الرومانية ، كانت تمتد من رأس خليج العقبة إلى دمشق ، ومن دمشق إلى تدمر وشرقيها فى قلب صحراء الشمال ، ولقد أسهب فى وصف أطلال تلك القلاع الرومانية لفيف من رجال الآثار ، أمثال برونو وفون دوماسز وسكى فى الكتاب « القيم » الولاية العربية . وكان من أشهر تلك القلاع ، ادرو ، والدجانية ، وليجون ، وهى من بناء الإمبراطور تراجان ويشيرودمير .

العمارة العسكرية فى أيام الأمويين :

وقد استفاد بعض تلك الحصون الرومانية أمراء بنى أمية ، فقد عاش الوليد الثانى وقتا طويلا فى حصن الأزرق الرومانى الذى شيد فى أيام ديوكليتيان ـ ومكسيميان وقد أعيد بناء الحصن على أيام الملك المعظم عيسى فى عام ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ — ١٢٣٧ م) .

وعلى مسافة نحو عشرين ميلا شرق الزرقاء ، كانت توجد قلعة رومانية عرفت فى العصر الإسلامى باسم قصير الحلابات ، كان قد بدأ فى تشييدها الإمبراطور كاراكلا ، عام ٢١٣ / ٢١٧ م ، ثم أكملها جستينيان عام٥٢٩م ، ويقع اليوم بالقرب من قصير الحلابات ، مسجد صغير يرجع بناؤه إلى النصف الأول من القرن الثامن وقد شيده أحد أمراء الأمويين ، وكان قد أقام مدة فى القلعة الرومانية(١) .

وتعلم الأمويون مزايا تلك الحصون البيزنطية وخصائصها الدفاعية ، ولاسيما ما كان منها فى الأراضى ، التى كانت على الحدود البيزنطية أمام أنطاكية ومن تلك : المصيصة [(٨٣ — ٨٤ هـ) (٧٠٢/٧٠٣ م)] ، والمثقب (١٠٥ هـ) (٧٢٤ م) . وقطرجاش والمؤرة والبقاع وبغراس (١٠٥ هـ ٧٢٤ م) .

وفضلا عن ذلك ، فقد تأثر الخلفاء الأمويون بأساليبها المعمارية عندما صمموا قصورهم التى نذكر منها : —

١ — قصر الوليد فى مينيا على بحيرة طبرية (٧٠٥ — ٧١٥ م) .

٢ — قصر الوليد فى جبل سيس .

٣ — قصر هشام (المعروف بقصر الحير الغربى) حول عام ٧٢٧ م .

٤ — قصر هشام (المعروف بقصر الحير الشرقى) ١١٠ هـ — ٧٢٩ م)

٥ — قصر هشام (المعروف بخربة المفجر) فى أريحا .

٦ — قصر الوليد الثانى فى مشتى (٧٤٤ م) .

٧ — « « « (المعروف بقصر الطوبة) (٧٤٤ م) .

ومع أن جميع تلك القصور الحصينة شيدت فى قلب بلاد المسلمين ، فقد اتبع فى بنائها طراز هندسة القلاع — على الأقل فى الخارج . فقد شيدت جدرها

---

(١) Creswell: Early Muslim Architecture. Vol. I. pp. 284-87.

من الحجر واكتنفتها الأبراج المستديرة ، والمشربيات الحجرية للتصويب السهام على المحاصرين المهاجمين . والمشربيات (Machicolis) فى العمارة عبارة عن اعداد دعائم ، يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها جوانح بارزة وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور ، يمكن أن تصوب السهام منه إلى رؤوس المهاجمين الذين يحاولون أن يحفروا تحت الجدران ، ويضعوا تحتها اللغم . كما يمكن أيضاً أن يصب على رءوسهم الزيت أو الماء المغلى أو غير ذلك من المواد المؤذية . وقد استخدم العرب المشربيات فى الحصون قبل الأوروبيين ، بمئات السنين ويعود ذلك إلى أيام هشام الأموى حينما بنى قصر الحير الغربى (٧٢٧ م) ثم قصر الحير الشرقى [1] . وبنى هشام أيضاً قصراً آخر يقع على مسافة أربعين ميلاً شرقى تدمر (بالميره) له مشربيتان جميلتان لها فتحتان .

المدينة ذوات الأسوار :

وبعد انتهاء أسرة الأمويين فى عام ٧٥٠م شيد العباسيون بغداد لتكون حاضرة دولتهم ، وقد كان لنقل عاصمة الدولة من دمشق إلى بغداد أثر كبير كالذى حدث حينما انتقلت عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما إلى القسطنطينية . فقد كانت دمشق الأموية فى ذلك الحين فى قلب اقليم سادته الثقافة الهيللينية منذ ألف سنة بين الفتحين الإسكندرى والعربى . وقد نتج عن انتقال العاصمة العربية أن اضمحل التأثير الهللينى وحل فى مكانه مؤثرات فارس الساسانية التى كان العراق يقع فى محيطها الجغرافى والثقافى .

وأول ما يقع عليه نظر الباحث من ناحية تلك المؤثرات هو تخطيط بغداد الجديدة ، ولدينا تفصيلات واضحة عن بناء المدينة بفضل ما كتبه اليعقوبى والخطيب نستدل منها على ما كان عليه شكل بغداد حينما شيدها المنصور وذلك بالرغم من زوال المبانى الأصلية .

كان تخطيط بغداد على شكل دائرة قطرها نحو ٢ ر ٥٠٠ متراً ، وقد بدأ

---

(١) Schlumberger, D. in Syria, XX, pp. 366 - 72.

فى وضع الأساس فى عام ٧٦٢ م وتم البناء عام ٧٦٦ م وكان هناك سوران أحدهما داخلى والآخر خارجى بينهما فاصل يقدر اتساعه نحو ٣٥ — ٤٠ متراً .

أما السور الخارجى فيقدر علوه نحو ٢٤ متراً وسمكه ٤ أمتار ، وكان ارتفاع السور الداخلى نحو ١٧ متراً بما فيه الشرفات وسمكه خمسة أمتار ومن أهم ما كانت تمتاز به أبواب بغداد تلك المداخل المنحنية (Bent- entrance) التى تعرض المهاجمين لأخطار الاصابة عند ما يقتحمون مدخل المدينة[1] .

وفى أعقاب بناء بغداد شيد الخليفة المنصور عام ١٥٥ هـ — ٧٧٢ م مدينة الرّقا ، وشحنها بالجند الخراسانية لتأمين الحدود السورية من غارات الروم [2] ويقول الطبرى المؤرخ الكبير أن أبوابها شيدت على نمط أبواب بغداد ، وكذلك الفواصل بين الأسوار الداخلية والخارجية والرحبات والطرق ، وليس هذا فحسب فإن الرقا لم تكن مستديرة الشكل وأن كانت قد أحيطت بسور مزدوج وبخندق .. وقد كان تخطيطها على شكل حدوة الفرس . وكانت سعة الخندق حول ١٦ متراً فى أعلاه وتسعة أمتار ونصف فى أسفله [3] .

وتقابلنا عدة عناصر معمارية ذات طابع عسكرى فى قصر الأخيضر الذي شيده عيسى بن موسى ابن عم السفاح عم المنصور حول عام ١٥٩ هـ - ٧٧٦ م[4] .

---

(١) هذا الأسلوب المعمارى أخذه الغرب عن الشرق وهو جعل المدخل الموصل من باب القلعة الى داخلها على شكل زاوية قائمة أو جعله ملتويا لكى لا يتمكن العدو الذى يصل الى الباب من أن يرمى الفناء الداخلى أو أن يصوب سهامه الى من فيه ... الخ .

(٢) يعزى الى الخليفة المنصور تحصين مدن كثيرة على الحدود البيزنطية فقد ذكر البلاذرى أنه فى عام ١٣٩ هـ (٧٥٦/٧ م) كتب المنصور الى صالح بن على يأمره بإعادة بناء وتحصين ملطية وقد نفذ الأمر فى العام التالى .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٩ (طبعة أوربا) .

(٤) Creswell : Fortifications in Islam before A. D. 1250., p. 109. Proceedings of the British Academy, Vol., XXXVIII. 1952.

ويختلف رجال الآثار حول تاريخ بناء الأخيضر . وهو على العموم قد شيد فيما بين عامى ٧٢٠ ر ٧٧٨ م .

ويقع الأخيضر على مسافة ثلاثين ميلا غربى كربلاء ويشتمل على موقع محصن خارجى تقدر مساحته نحو ١٧٠ متراً مربعاً ، وينتصف كل جانب باب كبير ويلتصق بالجانب الشمالى قصر كبير مساحته حول ١١٣ × ٨٢ متراً، ويقدر ارتفاع الأسوار بنحو ١٧ متراً (بدون الدورة التى اختفت) وفى كل كن من القصر برج مستدير ،ويتخلل السور عشر أبراج موزعة عليه عدا أبراج الأبواب ، وللأبواب متاريس مدلاة من حديد تسدها عند الضرورة وذلك برفعها أو خفضها ، وتلك ظاهرة تقابلنا فى القلاع العربية للمرة الأولى ، اقتبست عن الرومان فى الأخيضر على ما ذكره العلامة كريزويل فى كتابه المعروف .

تحصين الحدود العباسية البيزنطية :

وكان خط الحدود بين الدولتين العباسية والبيزنطية يتكون من سلسلتى جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة العسكرية الممتازة لوقوعها عند تقاطع الطرق التى تخترق تلك السلسلة الجبلية ، ولتحكمها كذلك فى الممرات الجبلية الضيقة وقد حرصت كل من الدولتين على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة للهجوم أو الدفاع . فوضع البيزنطيون منطقة التخوم التى واجهت أراضى الدولة الإسلامية تحت اشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور . ولما ازدادت حدة الإغارات الإسلامية فى القرن الثامن الميلادى دعموا تلك المنطقة بحاميات اطلق عليها حراس الحدود ، وكان هذا الخط الدفاعى يسير على امتداد جبال طوروس من الفرات الأعلى إلى حدود قيليقيا وينقسم قسمين : الأول يمتد من ملطية إلى عين زربة وكان مخصصاً لدفع غارات المسلمين الآتية من شمال العراق .

وأهم حصون ذلك القسم ملطية التى تقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المؤدية

من سبيسطة أو سيواس وقيصرية إلى أرمنية وشمالى العراق ، ويمر هذا الطريق من ملطية إلى مرعش عبر جبال طوروس بقلعة زبطرة . أما القسم الثانى من الخط الدفاعى البيزنطى فكان يواجه الشام ومهمته الدفاع عن الأراضى البيزنطية ضد الحملات الشامية (١) .

وقامت الدولة العباسية بمثل ما قامت به الدولة البيزنطية لتحصين حدودها فأقبل خلفاؤها على ترميم المعاقل والحصون فى منطقة الحدود المطلة على الأراضى البيزنطية . والمعروف أن الخليفة هارون الرشيد كان صاحب الخطوة الهامة فى تأمين الحدود الإسلامية . فقد أسس إقليما مشابهاً لإقليم الأطراف البيزنطى على حدود البلاد الشمالية ، وسماه إقليم العواصم والثغور وعاصمته انطاكية وجعل عليه ابنه المعتصم . وفى عام ١٨٠ هـ — ٧٩٦/٧ م أمر الرشيد بأن تشيد وتحصن مدينة عين زربة وحشد فيها لواء من فرسان(٢) وفى عام ١٨٣ هـ — ٧٩٩ / ٨٠٠ م أمر الرشيد ببناء حصن الهاردنية وهو حصن صغير فى جبل اللكام ، من غربية فى بعض شعابه وشحنه بالمقاتلة(٣) وكان للحصن سوران وأبواب حديد وقدخربته الروم ثم أعاد عمارته سيف الدولة بن حمدان . ونذكر أيضاً قلاع طرسوس(٤) . وبياس ومرعش وملطية واطنه(٥) .

---

(١) Bury : History of the Eastern Empire, p. 244, 246.
انظر أيضا دكتور إبراهيم أحمد العدوى : الأمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) البلاذرى / فتوح البلدان ص ١٧١ (طبعة أوربا) .

(٣) تاريخ حلب ص ١٨٦ .

(٤) تقع طرسوس على نهر « قره صوه » وكانت قديما فرضة بلاد قيليقيا ولقد أوصى الخليفة المهدى العباسى ببنائها استنادا إلى التقرير الذى رفعه إليه قائده العربى الحسن بن قحطبة الطائى سنة ١٦٢ هـ ٧٧٨ م وقد تم بناؤهـا فى زمن الرشيد عام ٧٨٨ م وعندهـا توفى للأمون عام ٣٣/٨٣٢ م ودفن بجامعها .

(٥) تقع أطنة على نهر سيحان الذى يصب فى البحر المتوسط فشيد قلعتها أبو سليم فرج الخادم عام ١٩٣ هـ — ٨٠٨ م .

أسوار القاهرة :

شيد القائد جوهر مدينة القاهرة فى عام ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م وقد أحاطها بسور لم يبق شيء منه اليوم . ولم تصل إلينا عنه معلومات معمارية سوى أنه بنى من اللبن ، وأن عرضه كان يسمح لفارسين بالمرور عليه فى اتجاهين متضادين .

وبنى السور الثانى للقاهرة الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى فى عام ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ م خارج سور جوهر الأول لا على أساسه . وكان مثله مشيداً من اللبن للجدران ومن حجر منحوت للأبواب والأبراج وقد قام ببناء الأبواب الثلاثة باب النصر — باب الفتوح — باب زويلة ثلاثة اخوه من رجال العمارة اتوا من الرها (أورفا) شيد كل واحد منهم بابا ولا تزال تلك الأبواب المنيعة باقية إلى اليوم فى أماكنها . وقد عنى رجال الآثار بدراسة تلك الأبواب دراسة مفصلة يمكن الرجوع إليها فى مراجعها[1] .

أما سور القاهرة الثالث فقد ابتدأ فى عمارته صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٦ هـ — ٦٩ / ١١٧٠ م . وقد كان حينذاك وزيرا للعاضد لدين الله آخر خلفاء الفواطم بمصر .

فلما استولى على الملك عام ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) وصار سلطانا ندب بهاء الدين قره قوش للعمل فى السور ، فبناه بالحجارة كما هو عليه اليوم — وبدلا من أن يحيط به القاهرة وحدها قرر أن يطوق به قلعة الجبل والقاهرة والفسطاط ولكنه توفى قبل أن يتم ذلك .

ونجد تفاصيل عمارة ذلك السور وما اشتمل عليه من أبواب وأبراج ومشربيات ومزاغل وزخارف ونقوش فيما كتبه العلامة الأستاذ كرزويل.

---

(١) الفصلان العاشر والحادى عشر فى كتاب Creswell : Muslim Architecture in Egypt.

قلعة الجبل :

تعتبر قلعة الجبل من أهم منشئات صلاح الدين العسكرية ، قرر بناءها فى عام ٧٢ ، هـ — ١١٧٦ م وتم العمل الكبير فيها عام ٥٧٩ هـ — ١١٨٣/٨٤م.

يتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من مربعين من الأرض مستقلين : الشمالى منه يشبه مستطيلا ذا أبراج بارزة ويفصله عن المربع الجنوبى حائط سميك ، وأبراج ضخمة . ويخرج المربع الجنوبى عن الشمالى مكونا معه زاوية قائمة . وحدود هذا المربع ليست منتظمة ويبدو أنه لم يكن فى البداية جدران محصنة وكان حول القسم الشرقى من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهرا . فإن الصخور محفورة فى هذا الجانب إلى عمق كبير بحيث يضاعف ارتفاع الجدار . وبذلك فصل صلاح الدين بين جبل المقطم وبين جزئه الواقعة عليه القلعة بهوة كبيرة ليمنع أى عدو قد يسيطر على جبل المقطم من الافادة على إشرافه على قلعته .

ويعزى إلى صلاح الدين بناء حائط السور بابراجه النصف الدائرية ويبدأ هذا السور من الجانب الشرقى لبرج المقطم ويمتد نحو الجنوب والشمال حتى ينعطف ويقف لدى المكان الذى يشغله اليوم المتحف الحربى ، وينسب إليه أيضاً البابان الخلفيان والجزء الداخلى من باب القرافة وباب المدرج وكذلك حائط السور الذى يمتد جنوبيه بما فى ذلك الجزء الخلفى من البرج النصف الدائرى الكائن بين الباب الأخير والباب المتوسط .

وموجز القول أن صلاح الدين شيد سور القلعة كاملا وقويا على قدر ما سمحت له الظروف المحيطة به وبفضل نشاط وزيره قره قوش . إذ أنه استدعى لفلسطين فى ١١ مايو ١١٨٢ وخاض غمار حروب طاحنة

خرج منها منصورا إذ هزم الصليبيين وانتزع منهم بيت المقدس فى أكتوبر ١١٨٧ م[١].

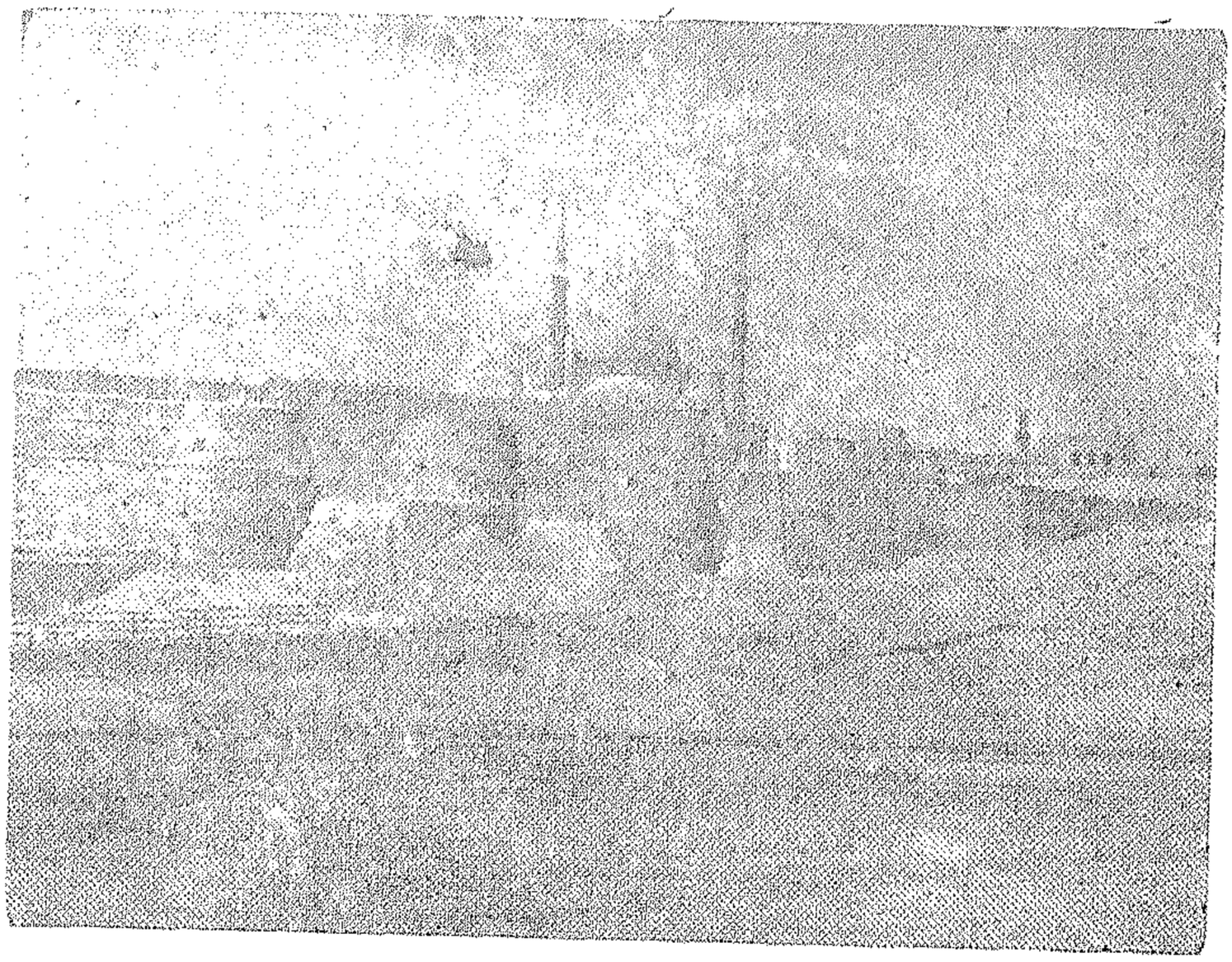

قلعة الجبل — السور الشرقى

ولما خلفه أخوه الملك العادل كانت الأمور قد استقرت قليلا ، فانتهز العادل هذه الفرصة واستطاع بما لديه من الثروة وما له من النفوذ أن يعيد تحصين المواقع الحربية فى سورية ومصر وغيرهما .

ولا تزال قلاع حلب ودمشق وبصرى واطلال حصون جبل طابور وقلعة النجم على الفرات شاهدة على جهوده الكبيرة ونشاطه فى هذا السبيل.

وينسب إلى الملك العادل فى القلعة ، الأبراج الثلاثة الكبيرة الكائنة بالجانب القبلى وهى برج صفطة وبرج قرقيلان وبرج العلوة ، والزيادة التى أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجى ببرج الرملة وبرج الحداد والجزء

---

(١) K. A, C. Creswell : Archeological Researches at the Citadel of Cairo. 1924.

الداخلى ببرج الصحراء والبرج الكبير الذى لم يتبق منه سوى قاعدته والبرجان الكبيران المربعان فى الركن الشمالى الغربى من السور . وقد تمت أعمال الملك العادل عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٦/٧ م) .

قلعة بصرى :

وفى بصرى حيث كان يقوم مسرح رومانى كبير شيد فى القرن الثانى الميلادى أدرك الأيوبيون أهمية تحويله إلى قلعة منيعة وذلك بتشييد عدد كبير من الأبراج حوله وتحمل هذه الأبراج عددا كبيرا من النقوش الكتابية للملك العادل تواريخها كالآتى :

٥٩٩ هـ (١٢٠٢ — ٣ م) و ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) و ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) و ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) و ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) و ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) .

وهناك نقش آخر باسم الملك الصالح تاريخه ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) . وأحد تلك الأبراج يشبه من الداخل أحد أبراج العادل فى قلعة الجبل ، ويشتمل على قاعة كبيرة يعلوها قبو وقد شيدت القاعة بالاسلوب المتعامد .

قلعة دمشق :

وقلعة دمشق كما هى عليه اليوم من أعمال العادل أيضاً ، بدأ عمارتها تاج الدولة تتش عام ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) الذى جعلها دار الإمارة ، واهتم بتعميرها السلطان نور الدين ثم الملك العادل . وتمتد تواريخ نقوشها بين عامى ٦٠٥ هـ و ٦١٤ هـ (١٢٠٨ — ١٢١٧ م) ويقوم فى جانبيها الشرقى والشمالى مدخلان عظيمان من طراز الأبواب المنحنية على شكل زاوية قائمة (Beat-entrance) وتعلو جميع أبواب القلعة المشربيات الدفاعية .

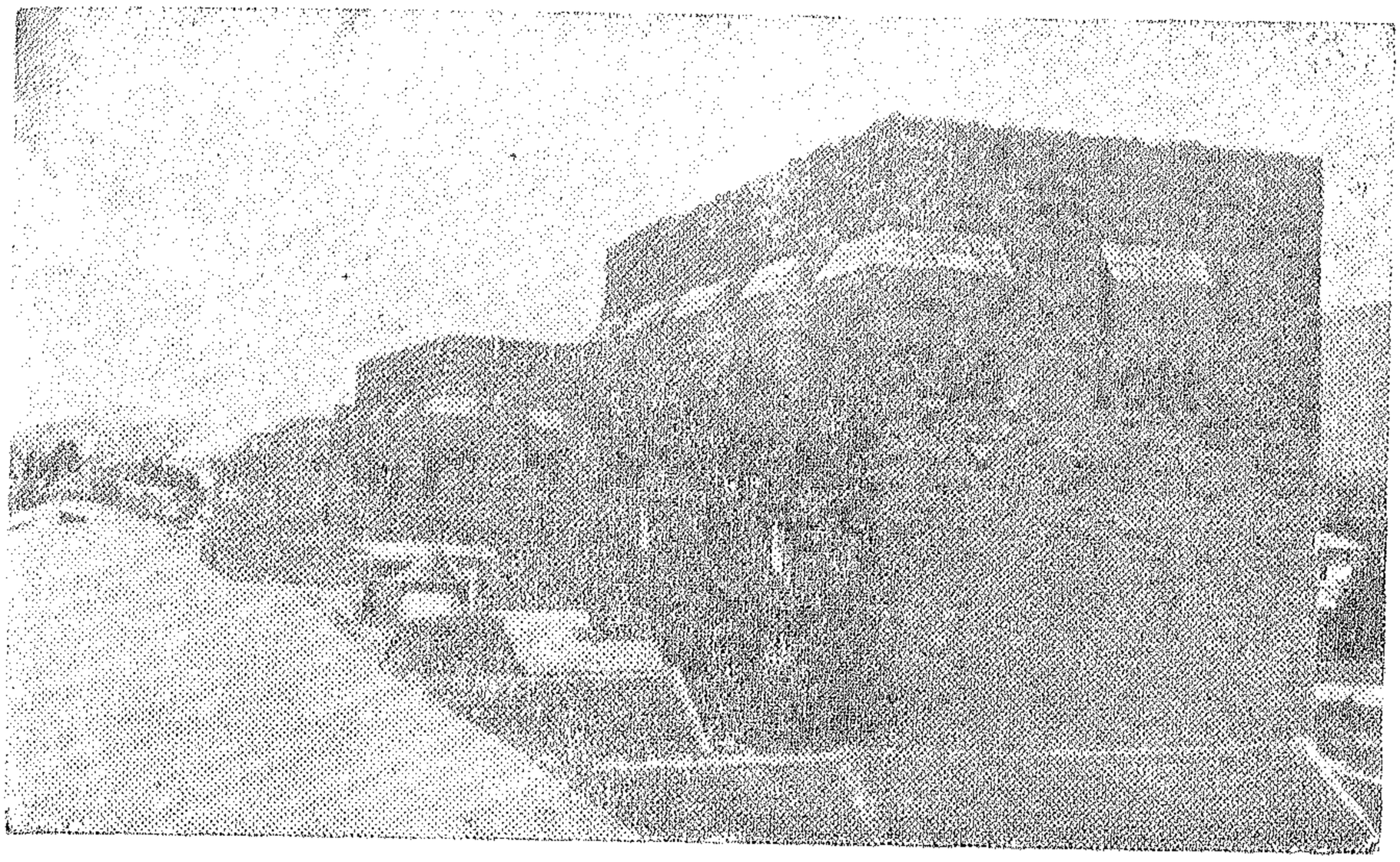

قلعة دمشق

قلعة جبل طابور :

وقد حصن العادل قمة جبل طابور عام ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) ولم يبق إلا مخلفات قليلة من حصونه اليوم ، وفى برج خرب نلاحظ فتحة للسهام (مزغل) على شكل حرف — v — يشبه فى تفاصيله المزاغل الموجودة فى قلعة الجبل والتى تنسب أيضاً إلى العادل .

قلعة حلب :

قلعة حلب من أهم آثار سورية الإسلامية وهى تنهض فى وسط مدينة حلب على تل مستدير الشكل غطى بزلاقة من الحجارة ، ويصل إلى القلعة بواسطة قنطرة عبر خندق وتتكون القنطرة من سبعة عقود .

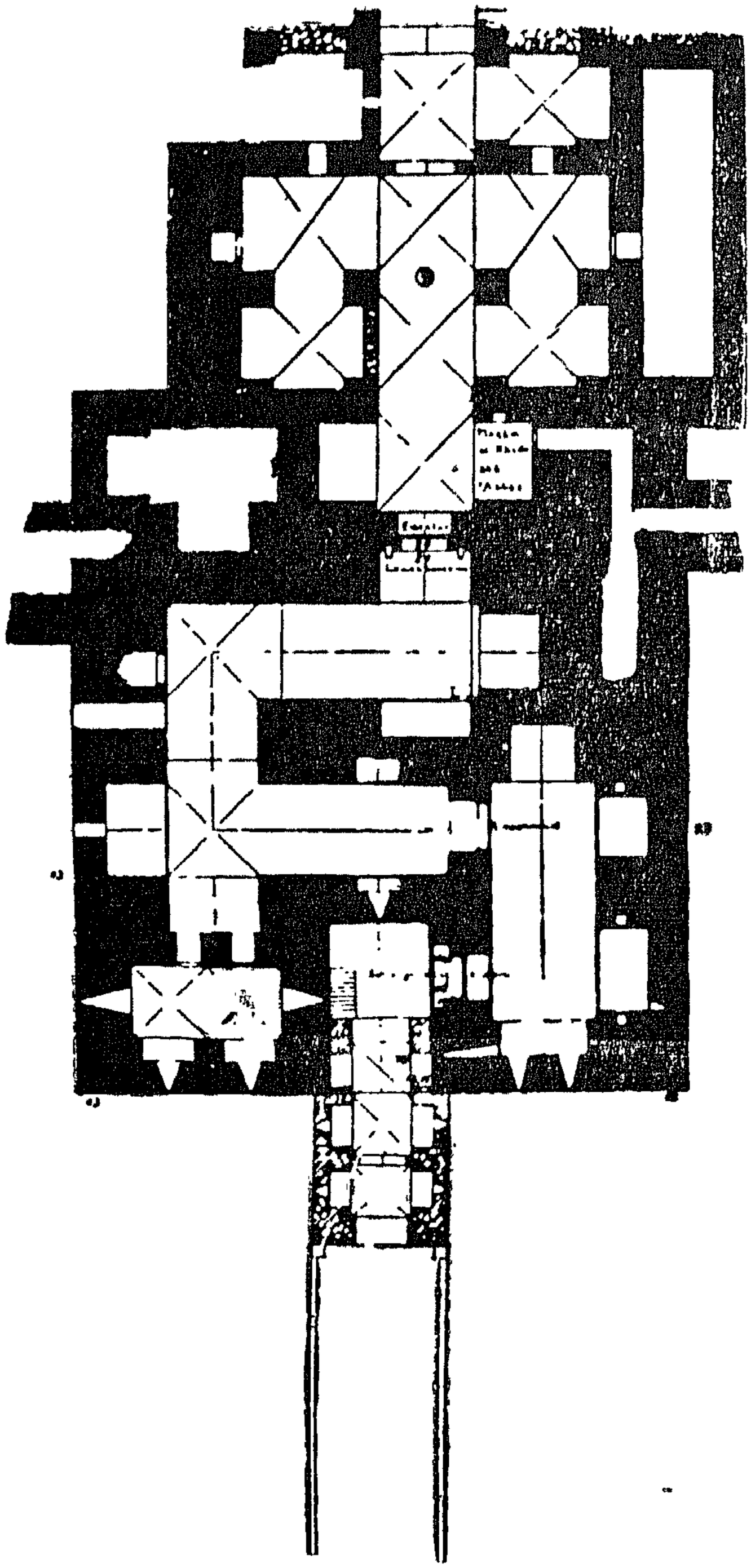

تخطيط مدخل قلعة حلب

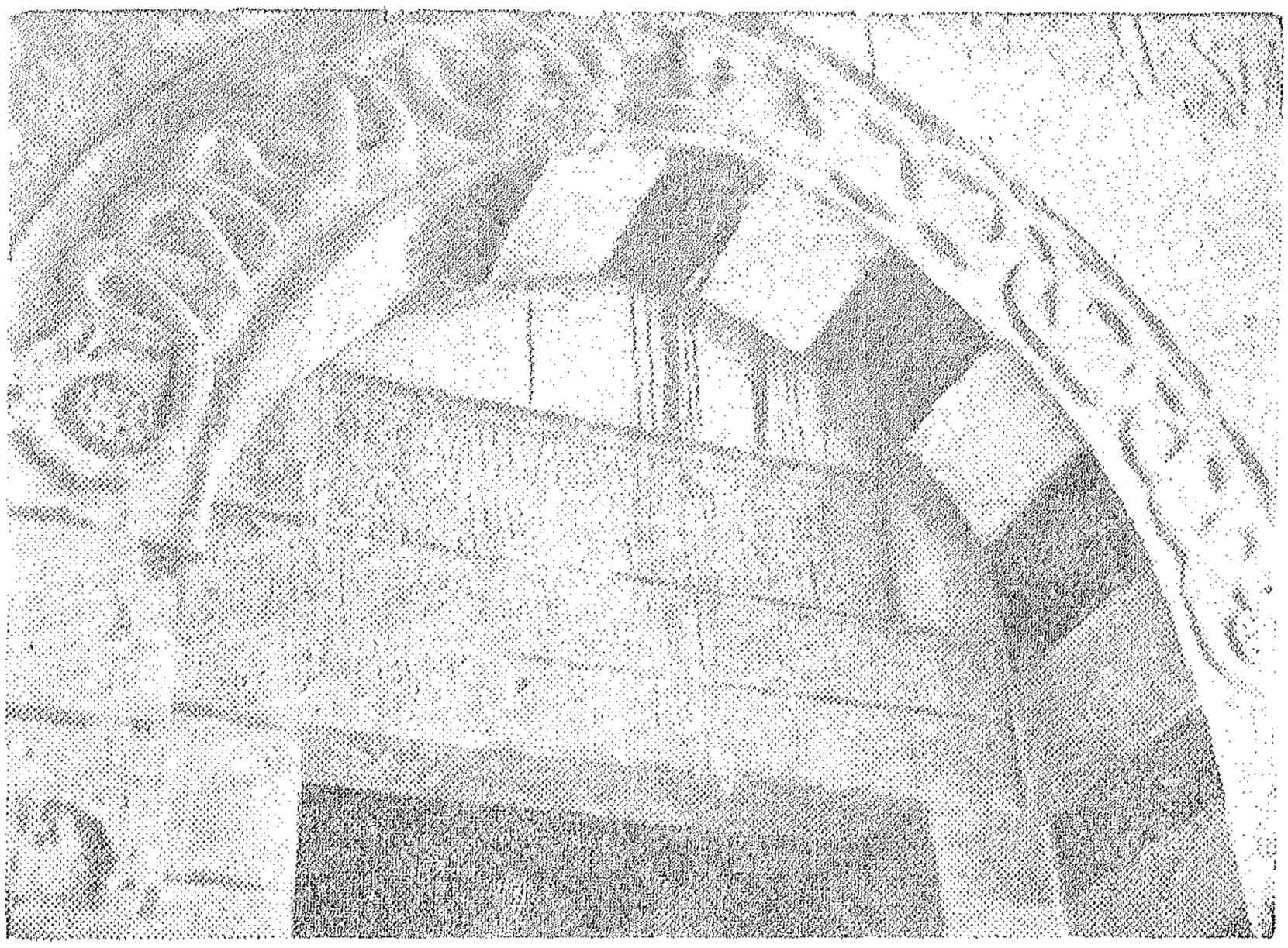

قلعة حلب : باب الحيات

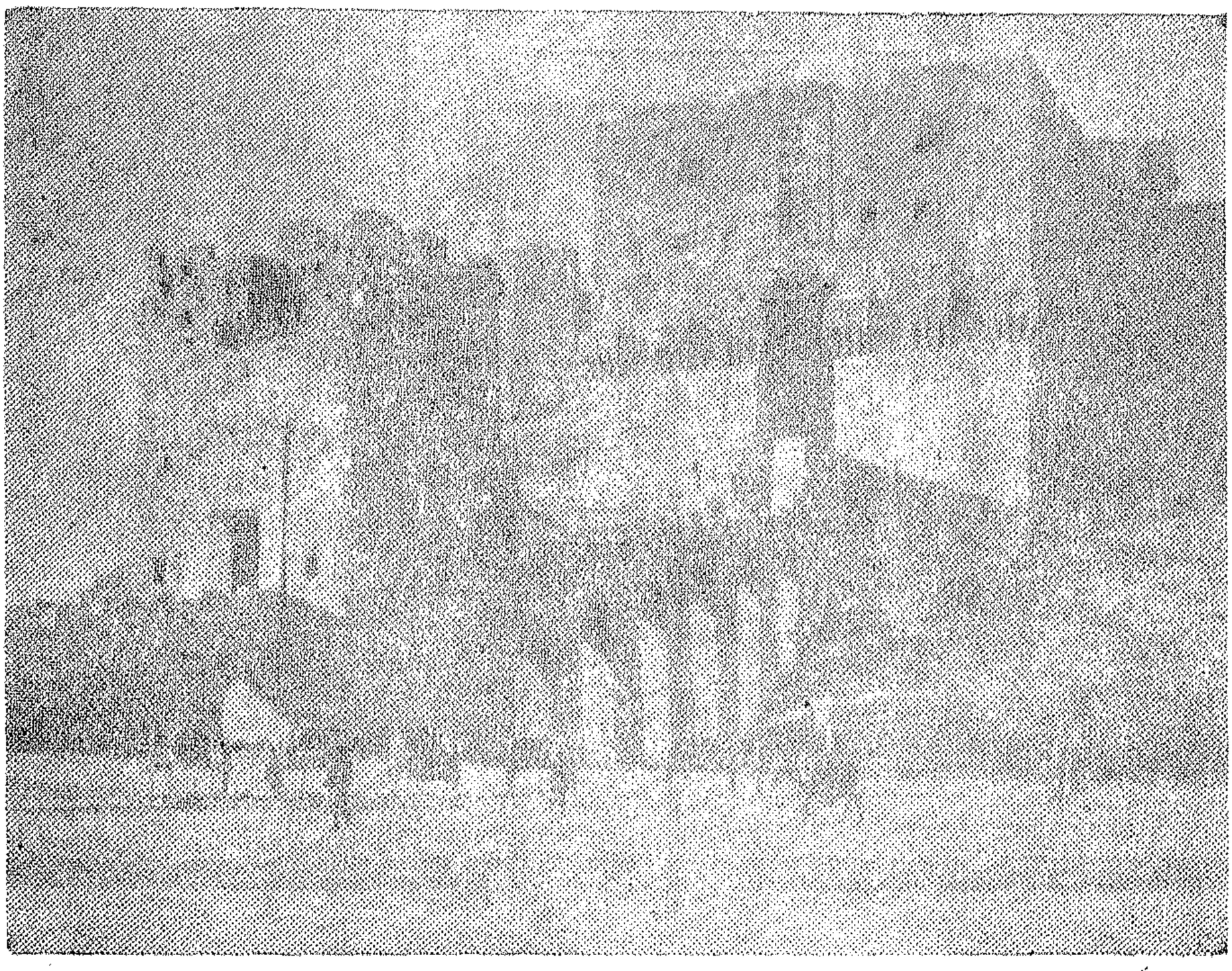

المدخل الرئيسى الجنوبى لقلعة حلب

ندخل إلى القلعة بعد أن نمر عبر مدخلها ذى الأركان المستديرة ، وعلى هذا المدخل نجد نقشـــاً للسلطان الغورى يشتمل على تاريخ عام ٩١٣ هـ (١٥٠٧)[1] ثم نعبر الخندق على جسر (قنطرة) عالية إلى أن يقابلنا برج المدخل الكبير (عرضه ٣٠ مترا وعمقه ٣٥ مترا) الذى يمر فى وسطه المدخل الرئيسى وهو مغطى بقبو على شكل نفق ، ثم ننثنى إلى اليمين لنجتاز المدخل الخارجى الرئيسى فيقابلنا باب من الحديد ثم ننثنى إلى اليسار وإلى اليسار مرة أخرى ونعبر باباً آخر من الحديد ومنه إلى ممر مقبىّ فنجد أنفسنا فى الجانب الآخر من البرج وندور يمينا مرتين ثم ننثنى إلى اليسار ونجتاز باباً حديدياً ثالثاً فنجد أنفسنا فى الجانب الداخلى للبرج (بعد خمسة منحنيات) .

وقد ذكر ابن الشحنة نقلا عن ابن شداد أن الملك الظاهر غياث الدين غازى هو الذى غطى سفح التل بالحجر وشيد بابها وكان ذلك فى عام ٦٠٠ هـ (٤/١٢٠٣) وعمل الملك الظاهر لهذا الباب جسراً (قنطرة) ممتداً منه إلى البلد . وبنى على الباب برجين وعمل للقلعة خمس دركات وجعل لها خمسة أبواب من الحديد ، وبنى فيها أماكن للجند وأرباب الدولة .

قلعة النجم :

وقلعة النجم حصن مستدير مشيد بالحجارة الجميلة ومقام على تل مستدير يحمى قنطرة عبر الفرات بين جرابلس وبالس وهى تشبه من بعض النواحى قلعة بصرى ويدل النقش الموجود على المدخل أنها من بناء الملك الظاهر فيما بين ٦٠٥ و ٦١٢ هـ (١٢٠٨ — ١٢١٥م)[2] .

---

(١) Sobernheim : Der Islam, XV, p. 169.

(٢) Wiet et Hautecœur : Les Mosquées du Caire., pp. 123 - 4.

العمارة العسكرية عند مجيء الصليبيين :

عند ما جاء الصليبيون إلى الشرق فى أخريات القرن الحادى عشر وجدوا فيه عمارة عسكرية أكثر تقدما عما كانت عليه فى بلادهم بأوروبا حيث كان عصر بناء القلاع بالأحجار قد أوشك على البداية .

ويرجع تقدم العمارة العسكرية فى الشرق إلى الرومان ، فقد عنوا بدراسة مشاكل الدفاع العسكرى كعلم له قواعد وأساليب واستفاد البيزنطيون بهذا التراث وعملوا على إنعاشه وتطويره لأن سياستهم العسكرية كانت دفاعية خلال مدة وجودهم فى الشرق الوسيط ولا سيما فى أهم أقسامه أى سورية ضد غارات الأعراب من الصحراء — ولذلك اكثروا من بناء الحصون والقلاع فى الأماكن الهامة ... فلما جاء العرب إلى سورية وانتصروا على البيزنطيين كانت الناحية الدفاعية أولى الأشياء التى عنوا بها . وتعلموا أشياء كثيرة من أساليب البيزنطيين كما رأينا .

ولكن مشاكل البيزنطيين الدفاعية لم تكن صورة طبق الأصل لمشاكل الصليبيين القادمين الجدد . فقد افترض البيزنطيون أن القوة العددية للجند لا تعتبر عندهم مشكلة بالقدر الذى نجدها عند الصليبيين الذين يستمدون الرجال من بلادهم البعيدة . فالبيزنطيون تسندهم بسرعة بلادهم المجاورة بما يتطلبه الموقف العسكرى .

والقلعة البيزنطية فى الشرق لم تكن أكثر من معسكر محصن . صمم تخطيطها على اعتبار أن أسلحة العدو أضعف من أسلحتهم ، وكان البيزنطيون يرون أعداءهم العرب أضعف منهم فى فنون الحصار وأسلحته. ولذلك كانت جدران حصونهم غير متينة واستعانوا بالخنادق العريضة أو العميقة ليحرموا العدو جلب أبراج الكباش وسلالم الحصار إلى مسافة يستطيع منها قذف الحجارة والسهام على جنود القلعة .

وكان البيزنطيون يشيدون فى القلاع ـ الأبراج ذوات الميول ويبنونها على مسافات متفاوتة من جدران القلعة ، ولم تكن تلك الأبراج لحماية الأسوار بل لكى يتيسر لرماة القسى ورماة النقط مدى طويلا لاختراق خطوط العدو المهاجمة وكان يشيد فى وسط السور برج مرتفع يخزن فيه المؤن والسلاح والعتاد وليس لكى يكون آخر ملجأ للجنود يدافعون فيه عن أنفسهم .

ونحن إذا استثنينا بعض القلاع التى شيدها البيزنطيون عند الحدود الأرمنية حيث كان يقوم بشئون الدفاع أمراء شبه مستقلين فقد استخدمت القلعة كمكان إقامة دائمة . لقد كان الأمير جندياً محترفاً ترك زوجه وأولاده خلفه فى المدينة يعيشون عيشتهم الرتيبة .

ومع أن البيزنطيين كانوا يعنون باختيار الأرض الصالحة لبناء القلعة ، فلم تكن صعوبة الوصول إلى موقع القلعة (من ناحية المهاجم) هى أولى العوامل التى اهتموا بها . فقد كانت المزية الأولى الرئيسية للقلعة أن تستخدم كثكنة مسلحة . وكان من العسير أن نطلب من الجندى كلما أمر بالتحرك أن يجهد نفسه صاعدا أو هابطا[1] ونلاحظ أن العرب قد اتبعوا أساليب البناء البيزنطية وإن كانت طبيعة جيوشهم تعتمد على الهجوم المفاجىء وسرعة الحركة ولذلك لم يعنوا كثيراً بمشاكل الدفاع الكبرى إلا فى بعض الظروف[2] .

الصليبيون ودراسة أساليب القلاع :

عنى الصليبيون بدراسة أساليب العمارة العسكرية فى خلال سيرهم الطويل فى رحلتهم من الغرب إلى الشرق ، وقد أفادوا حقا من قوة

---

(١) Deschamps : Le Crac., pp. 45 - 57., Eberselt Monuments d'Archite cture Byzantine, pp. 101 - 106.

(٢) Je ddan : Crusader Castles, pp, 22 - 6.

ملاحظتهم ، ولـكن كما قلنا كان موقفهم (من النواحى الأداريه والتعبوية على الأقل) مختلفا عن البيزنطيين أو العرب ، فقد كانت شكواهم من نقص عـدد الرجال دائمة . ولم يستطيعوا الاحتفاظ بحافل ضخمة العدد فى حامياتهم المبعثرة فى مملـكتهم . . فلا غرو إذا لاحظنا متانة قلاعهم وسهولة وضعها من ناحية الدفاع عنها . وقد عنوا كثيرا باختيار المواقع المناسبة التى تتوافر فيها المزايا العسكرية الدفاعية . ولذلك نراهم قد استخدموا كل منحدر وكل صغير إلى اقصى حد . ولما كان من الصعب استعمال جنود الـكشافة فقد استعاضوا عنهم بمبدأ تبادل الرؤية ، بمعنى أن تـكشف كل قلعة ما يجاورها أو يتلوها من الحصون وذلك لغرض تبادل الأنباء والتعليمات وتيسير المواصلات .

وقد بالغ الصليبيون فى زيادة سمك جدران القلاع وعلى اطالة علوها وذلك لـكى تقاوم الهجمات المباشرة والاسلحة الفتاكة ولم يعتمدوا على منشئات الدفاع الخارجية التى تقام عادة أمام القلعة وذلك اقتصادا للجند .

وفى الوقت نفسه كانت تؤدى القلعة وظيفة المركز الرئيسى للآمر أو الملك أو نائبه والمقر الأدارى للحكومة .

ولا يخفى أن الفرنج كانوا قد جلبوا أساليبهم الأقطاعية ولم ينسوا أنهم أجانب يحكمون بلادا يختلف أهلها عنهم .

وكانت المساحة التى تشغلها القلعة كبيرة وتسمح بوقاية قطعان الحيوان والغنم أثناء غارات العدو العديدة . والحقيقة أن القلعة لعبت دورا أكثر أهمية للافرنج مما لعبته عند العرب والبيزنطيين[1] وفى الغرب المعاصر للصليبية كان القصر القلعة فى دورها البسيط عبارة عن حصن مربع قوى البناء كان يطلق عليه أسم (Donjon) وقد بلغ أسلوبه فى عهد النورمان

---

(١) Desehams : Le Crac, pp. 89 - 103.

إلى ما يقرب من الكمال . ولكنه كان لايفى باحتياجات حاميات الصليبيين أن يعملوا بجد لتحسين طراز قلعتهم لتؤدى لهم أجل الفوائد ، فاستعاروا أفكاراً كثيرة من أسلافهم البيزنطيين ، واقتبسوا مما شاهدوه فى الشرق ظاهرة المشربيات ، كما انتفعوا باسلوب توزيع الابراج على امتداد سور القلعة ولم ينقل هؤلاء ما شاهدوه بدون تعديل بل نراهم يفضلون الأبراج المستديرة لانها تعطى مدى أوسع للاضرار بالعدو ، ولم يتمسكوا بالابراج المربعة التى فضلها البيزنطيون .

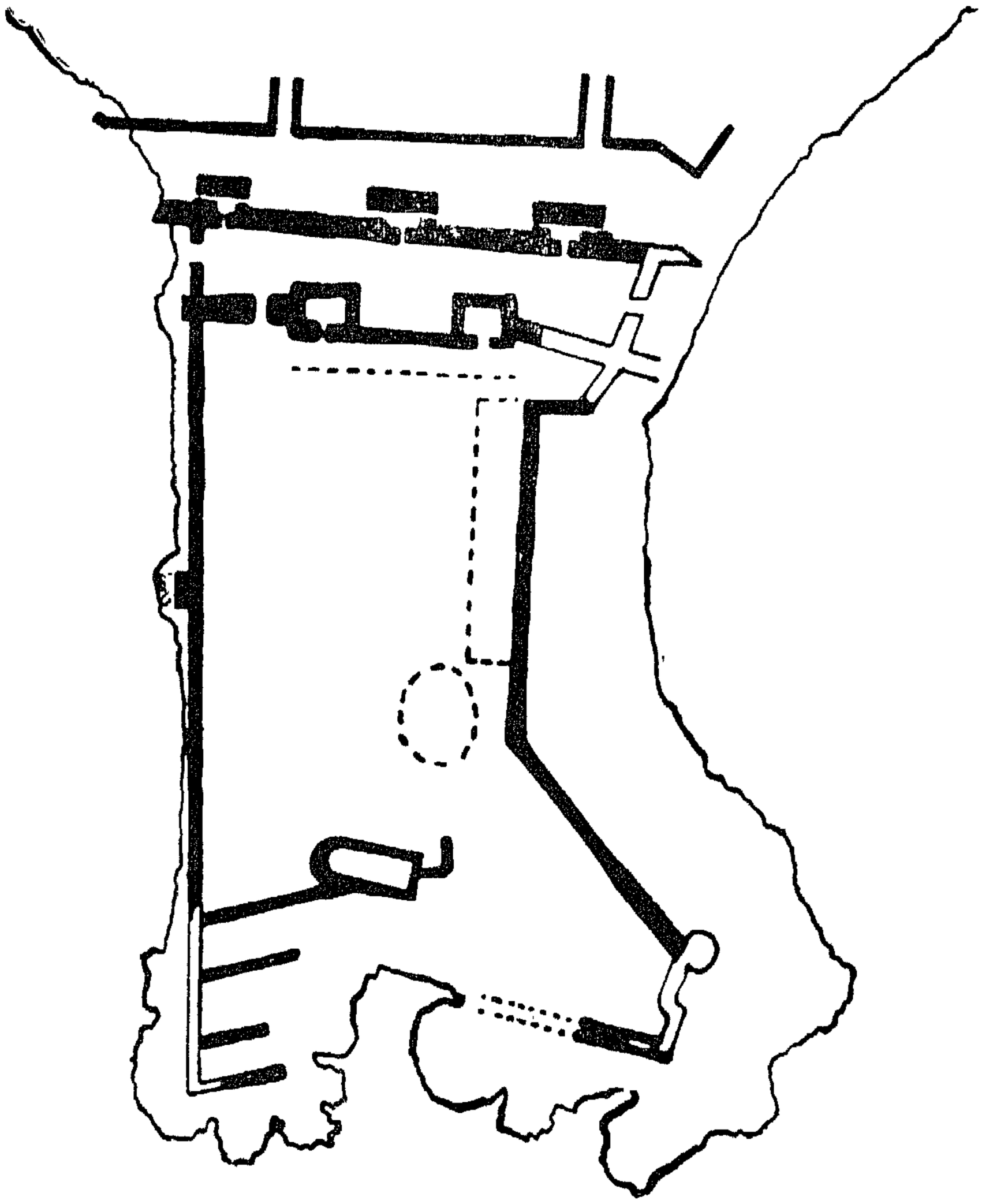

قلعة الحاج

أسرع الصليبيون عقب نزول جيوشهم فى البلاد المقدسة فى اصلاح اسوار المدن التى تهدمت وشيدوا القلاع لحراسة أماراتهم ، واستخدموها كما قلنا مراكز لادارة شئون البلاد إلى جانب واجبها فى الدفاع ، وقد بدأوا عملهم فى المدن التى احتوت على قدر كاف من الحصون . . كانوا يشيدون قلاعهم على حافة المدن لكى تضطلع بالدفاع المستقل عن المدينة . وقد بنوا أول قلعة يمكن تأريخها بالدقة — قلعة الكونت ريمون على جبل الحاج ، عام ١١٠٤ م لكى تكون مقرا لرئاسة جيشه وذلك بينما كان منهمكا فى حصار طرابلس .

ومن المحتمل جدا أن تكون قلاع أمراء الجليل فى طبرية وتورون قد شيدّت فى العصر نفسه .

قلاع الصليبيين فى أوائل القرن الثانى عشر

كانت قلاع الصليبيين فى أوائل القرن الثانى عشر صغيرة كقلعة بلفوار مثلا ، شيدوها بالأسلوب البيزنطى ويحيط بها سور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريبا وتكتنفه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال (Keep) كان يؤلف فى المواقع قلب الدفاع ، وقد اهتموا كثيرا باختيار الموقع ليكون صعب المنال ولكى يستغنوا عن بناء الأعمال الدفاعية الخارجية . أما اسلوب البناء فقد جمع بين المتانة والمنعة .

لقد بدأ العصر الكبير الأول فى بناء القلاع الصليبية فى سورية فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر فى أيام حكم الملك بلدوين الثانى (١١١٨ — ١٣١ م) واستمر على أيام فولك ، حينما شيدت قلعة كرك مؤاب[1]

---

(١) شيد الصليبيون كرك مؤاب فيما بين ١١٤٠ — ١١٤٣ م وتمتاز بموقعها العسكرى الهام شرق البحر الميت ومشيدها ابن التابلسى رئيس سقاة الملك فولك .

وبوفورت[1] وإلى الشمال قلعة صهيون[2] وكذلك تلك المجموعة من القلاع الصغيرة نسبيا فى بلاد اليهودية مثل قلعة الحارس الأبيض[3] وقلعة

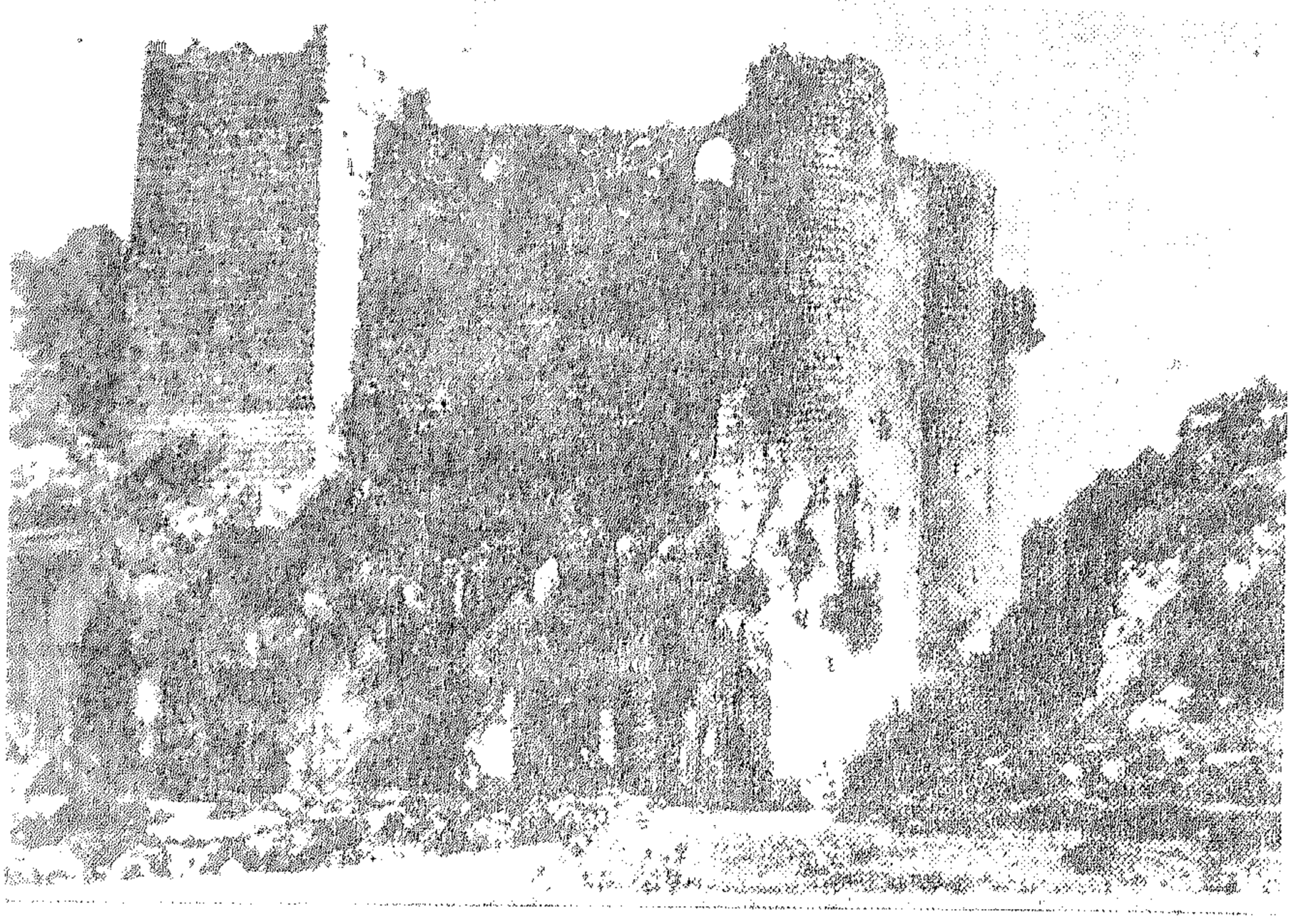

قلعة صهيون فى سورية

ايلين[4] ونرى الصليبيين قد انتفعوا فى قلعة صهيون (وكانه اصلا من بناء البيزنطيين) بالخندق المحيط ببعض اجزائها وحولوه إلى هوة عميقة

---

(١) بدأ الفرنج بناء قلعة بوفورت عام ١١٣٩ على قمة أحد الجبال المشرفة على نهر الليتانى وهى تبعد نحو ٢٤ ميلا من بيروت وقد انتزعها السلطان الظاهر بيبرس من الصليبيين فى ١٥ أبريل ١٢٦٨ م .

(٢) تقع قلعة صهيون على حافة تل مرتفع بين وهدتين عميقتين وقد شيد على هذا المكان الفينقيون والبيزنطيون قلعة ما زالت بعض أجزائها باقية من مبانى القلعة الصليبية وقد أضاف الصليبيون إليها الأسوار الضخمة والأبراج المنيعة لتزداد منعة وتعتبر صهيون والمرقب وحصن الأكراد من أهم قلاع الصليبيين .

(٣) تعرف هذه القلعة باسم تل الصفى بناها الملك فولك فيما بين عامى ١١٣٧ — ١١٤٢ وهى تؤلف مع ايلين وبيت جبلين حلقة دفاعية حول عسقلان فى الجنوب الغربى من فلسطين .

(٤) شيد رجال الاسبتارية قلعة ايلين (يهنا) عام ١١٤١ م .

ضيقة يبلغ عمقها نحو تسعين قدما قطعوها فى الحجر الصلب . ولقد ادرك الصليبيون اهمية موقع صهيون فزادوه مناعة . ومن ذلك أنهم استخدموا المتاريس المدلاة وهى أبواب من حديد معلق على بوابات الحصون عند الضرورة فتسدها وتعرف هذه المتاريس بأسم (Portcullis)وقد استخدمها الرومان منذ القدم فى قلاعهم وفى حصن قصر الشمع بيابليون كما استعملها العرب فى حصن الاخيضر كما ذكرناه من قبل . وقد عرف الصليبيون من العرب المدخل الذى على شكل زاوية قائمة .

القلاع الصليبية الكبرى :

أما القلاع الصليبية الكبرى فكانت مبانيها أكثر تعقيداً ، فإن قلعة كرك الفرسان (حصن الأكراد)[1] مثلا شيدت لكى يعيش فيها الأمير وأسرته وجنوده والكتبة ورجال الإدارة الذين يعملون فى إمارته وفى مثل تلك القلعة ــ أى قلعة القرن الثانى عشر كان الحصن (Keep) ومساكن الإقامة تقام فى غالب الأحيان فى أبعد أركان السور ليمكن الدفاع عنه بسهولة أما المخازن والمصلى فقد شيداً فى الفضاء الأوسط داخل القلعة ، بينما اشتملت الأبراج الأخرى المشيدة ضمن مبانى السور على ثكنات الجنود وأماكن العمل وكان شكل مخطط القلعة يختلف تبعاً لشكل الأرض المقامة عليه القلعة ومساحتها . وقد كان الحصن (Keep) عبارة عن برج بسيط مربع الشكل على النمط النورمانى له فى غالب الأحيان مدخل واحد . شيد بالحجارة

---

(١) أهم الحصون الإسلامية الصليبية فى سوريا ؛ يقع على مسافة ٢٤٠ ك . م من دمشق و١٤٠ ك . م غربى طرابلس (لبنان) . ويشتمل على مجموعة نادرة المثال من أعمال الدفاع والأبراج المستديرة والجدران والمشربيات والأقبية التى تحت الأرض والزلاقة الخارجية فضلا عن مناعة الموقع العام . وقد نشبت حوله معارك عنيفة لا عد لها مبنية الاستيلاء عليه . وكان آخرها ذلك الحصار المشهور بين قوات الظاهر بيبرس وفرسان الاسبتارية الذين كانوا يدافعون عنه إلى أن سقط فى قبضة المسلمين فى ٨ أبريل ١٢٧١ م .

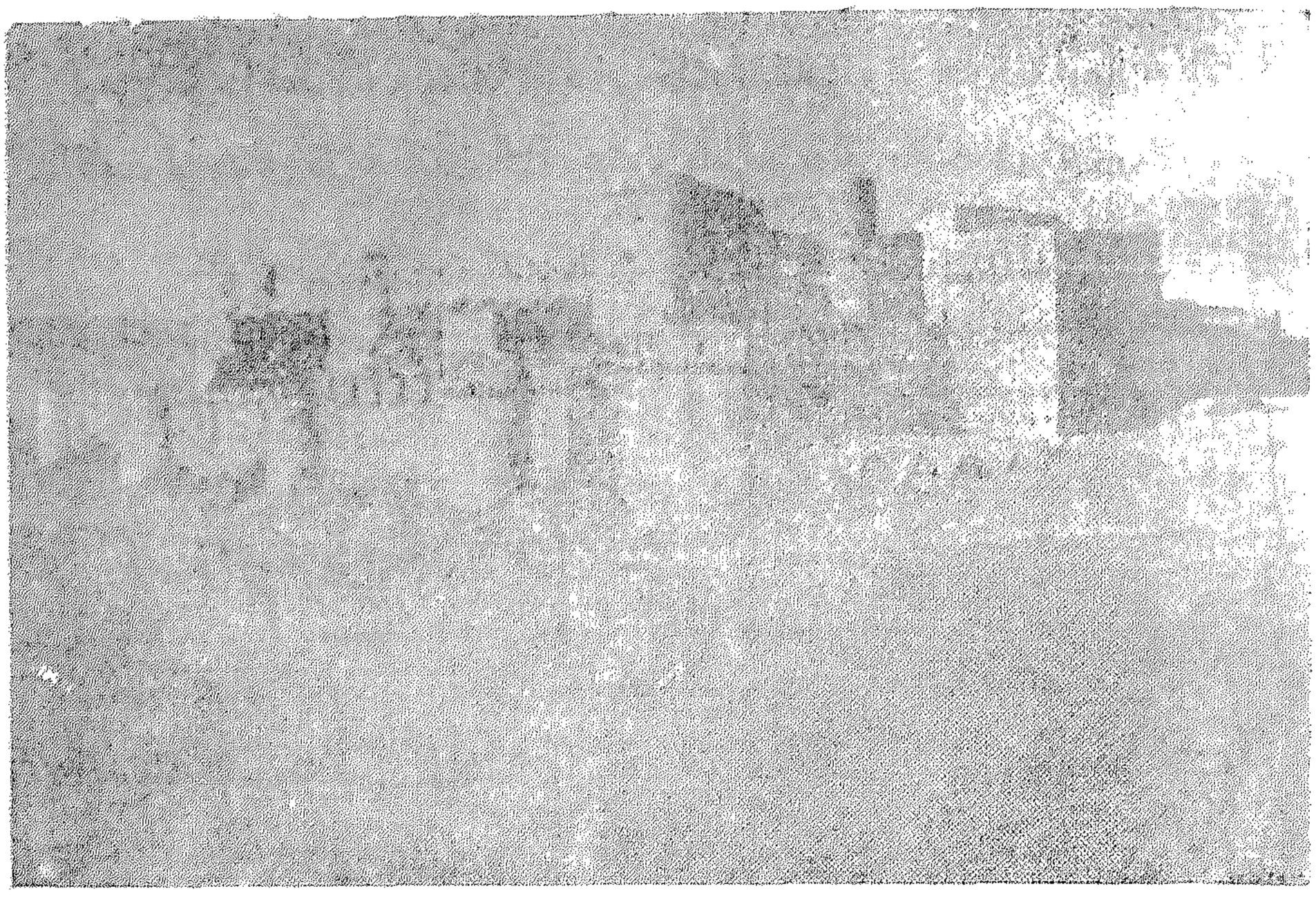

قلعة الحصن — حصن الأكراد

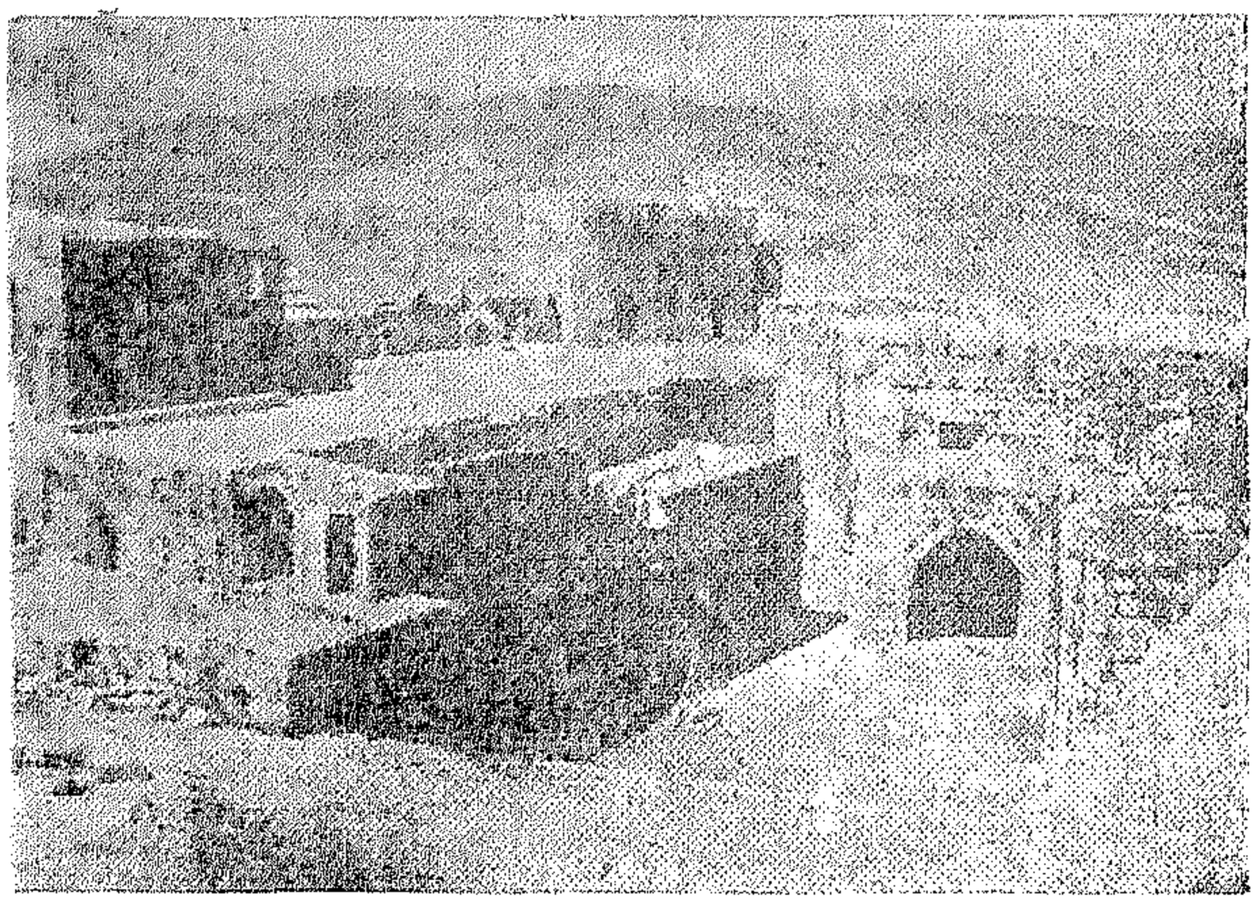

حصن الأكراد من الداخل

القوية وبأسلوب بسيط وأن زخرفت أحياناً مساكن الإقامة والمصلى . ومن سوء الحظ أنه لم يصلنا شيء من تلك الحليات والزخارف المعمارية التى كانت توجد فى قلاع القرن الثانى عشر أما القلاع التى بقيت فى أيدى اصحابها من المسيحيين بعد عصر . صلاح الدين الأيوبى فقد أعيد زخرفتها وتجميلها فى القرن الثالث عشر وما وقع منها فى قبضة المسلمين اصابها التغيير والحذف والإضافة . وما تبقى بعد ذلك آل إلى الخراب على مر السنين[1] .

العمارة العسكرية فى القرن الثانى عشر

وبتقدم القرن الثانى عشر طرأت تغييرات رئيسية فى تخطيط القلاع الصليبية فقد نظر بعين الاعتبار إلى اهمية موقع الحصن (Keep) وهو امنع اجزاء القلعة واقواها ورؤى أن يقام فى اضعف قطاعات السور ، وكان الحصن حينذاك قد تحول شكله من المربع إلى المستدير وذلك لاسباب ذكرنا بعضها ومنها مقاومة السطح المستدير طلقات المقذوفات بشكل مؤثر كما أنه زيد عدد الأبواب العادية والسرية (Postern) فى الأسوار .

ونلاحظ أن القلاع التى شيدها الصليبيون فى القرن الثانى عشر أخذت فى الضخامة ولا سيما حينما بنى رجال الطوائف الدينية قلاعاً لهم أو عند ما كانت تؤول إليهم قلاع النبلاء والأمراء وكانت قلاع تلك الطوائف لاتأوى النساء ومع أن مساكن كبار القادة والموظفين (داخل القلاع) اشتملت على جميع وسائل الراحة فقد احتوت أيضاً على كل ما تتطلبه الضرورة العسكرية . لقد كانت القلاع الكبرى مثل كرك أثليت عبارة عن مدن عسكرية تسع عدة الاف من المحاربين والخدم والتابعين .

---

(١) راجع الوصف المفصل وتخطيطات قلعة كرك مؤاب والعبية فى باتياس فى كتاب :
Dechamps : La Défense du royaume du royaume de Jerusalem. Paris 1939.

ونشاهد أنه كان من النادر استخدام الأسوار المزدوجة فى قلاع الأسلوب المشترك المركز (Concentric) — صحيح أنه كان لقلاع طائفة الاسبتارية الكبرى مثل حصن الأكراد والمرقب اطار مزدوج (أى سور)

وتقلد هذه الظاهرة طائفة الداوية . وقلدوه فى بنـــاء قلعة صافيتا[1] ولكنهم فضلوا السور المفرد كقاعدة عامة ولذلك نلاحظ أن قلاعهم الهامةالتى شيدوها فى القرن الثالث عشر كطرطوسة[2] واثليت[3] اتخذت

---

(١) من أقدم القلاع التى شيدها الصليبيون (٢ — ١١ — ١١٠٤) لوقايه المخاضة التى توجد فى أقصى شمال نهر الأردن .

(٢) طرطوسة من أجل القلاع التى شيدتها طائفة الداوية على ساحل سورية ولها خطان للدفاع .

(٣) تقع فلفو اثيت على الساحل وتبعد نحو ١٣ ميلا جنوب غربى حيفا وهى من أجل المعائر العسكرية فى فلسطين ، بناها الداوية عام ١٢١٨ م وكانت مقر رئيس طائفتهم وقعت فى قبضة السلطان الملك الأشرف بعد سقوط عكا فى عام ١٢٩١ م.

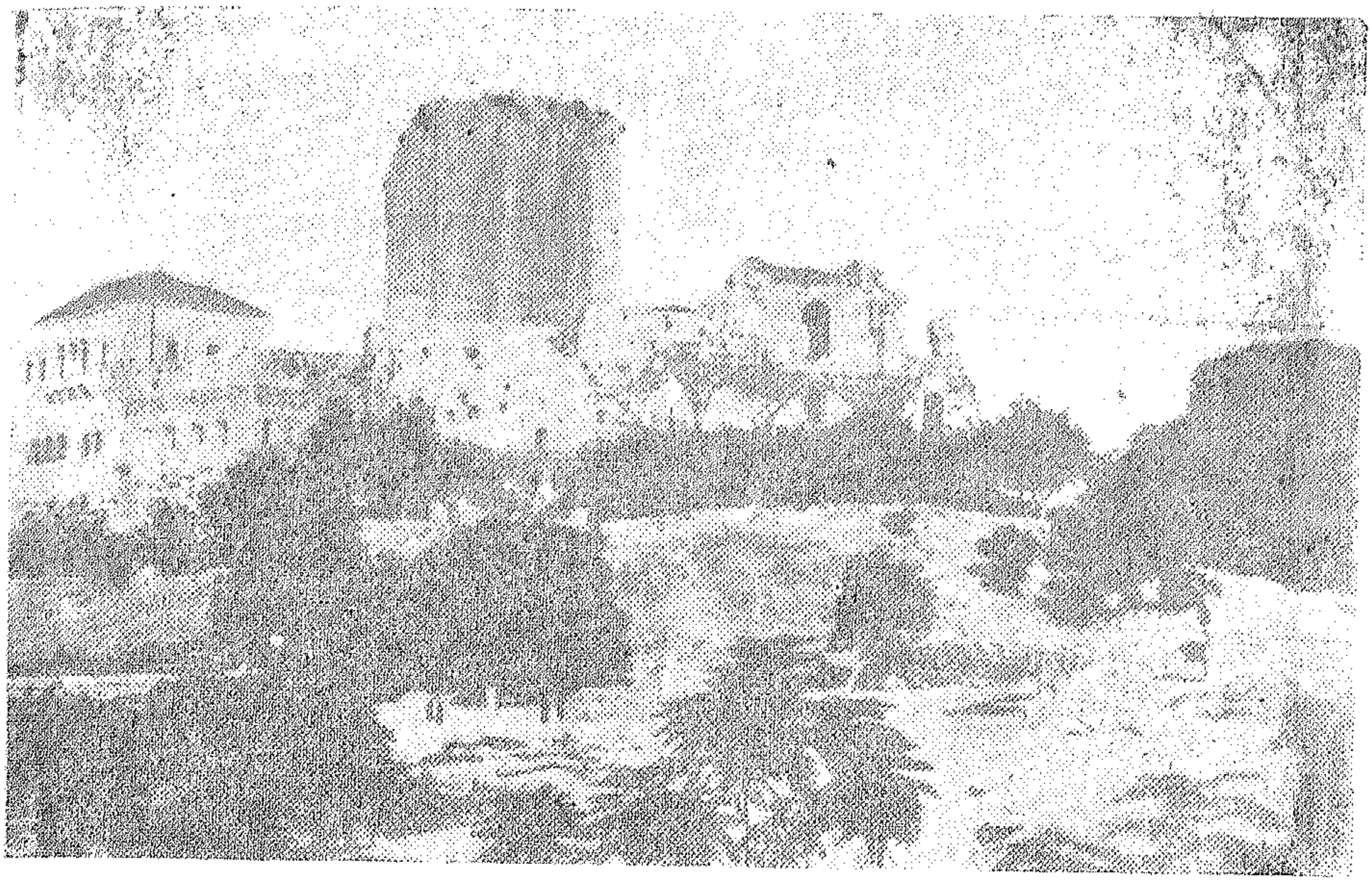

قلعة صافيتا (البيضاء)

الأسلوب الباكر، لكننا نشاهد فى الحالتين أن الأجزاء المرتفعة من الأسوار هى التى كانت تلاصق البحر — كذلك قلعة مونتفورت[1] التى شيدها رجال التيتون كانت ذات سور مفرد . ولم تكن فكرة السور المزدوج جديدة على فن العمارة العسكرية فى سورية فإن أسوار القسطنطينية البرية التى شيدت فى القرن الخامس كانت مزدوجة ، وحينما شيد المنصور مدينة بغداد فى القرن الثامن احيطت بسور مزدوج ولكن رجال الاسبتارية سبقوا غيرهم فى تطبيق هذا الأسلوب فى قلعة واحدة مع أنه يفضل استخدام السور المزدوج فى قلعة كبيرة[2] وضخمة .

---

(١) قلعة مونتفورت (Mons Fortis) أو ساركبنورج شيدت فيما بين ١٢٢٧ و١٢٢٩ م فى موقع قاحل ومنيع يصعب الاستيلاء عليه .

(٢) Rey : Arch. Militaire pp. 70 - 72. Fedden : pp. 28 - 9.

قلعة طرطوس من الداخل

تلك هى نظرة شاملة عن أحوال أهم القلاع الإسلامية والصليبية وأهم عناصرها المعمارية أرجوا أن أكون قد وفقت فى عرضها .

عبد الرحمن زكى